

السيد المازف يحرك انامله
طاله على البيانو بسرعة فائقة ، ثم
يتوقف كأنه قد من خبر ، لتدوي
الانغام هاربة بحسره وهدوء ، وتخفي
كأنها لم تكن - او قل هذا ما خيل
لمازف - وعينه قد سمرت ابوجه شمعي

المازف

بقلم الأستاذ
فانح . ع . لمصر
قصة مملكت امض
الناس وليست مملكت

محترقة الحواشي ، ويحتوي هذه الاسراب
النائية على الآفاق ، ضباب فاكر .

كل شجرور اطلق بجناح واحد
اسود لا يتحرك ، ونحو النجوم مضي
وعبر التلال الباردة بانطلاقة الغريزية
الليانة المسحورة ، لاشي الانقف الاسراب

لحظة خاشمة ، تصلي لكامن مجبول . ومن ثمة انتهار كرماد
النيازك . لتختفي بعد ان ترسم دوائر وخطوطاً لا ناية لها في
الفراغ الصارم .

— هل تسمع ايها المازف — تتم الوجه .
لتختفي ! كل هذا لتختفي فحسب كما جاءت من الخفاء وتحمي
كأن لم تكن :

والتي اسمع اصداها انهارها .

انه لحن من الواقع المصدني ؛ لحن الفناء ، لحن الموت ،
وكيف يدفع قاتلة الحياة . . انظر . . نحو مجاهيلها ياله من لحن
كوني لا ينسر فاحترمه ياسيدي احترمه
وه . . ها كذا لك بعد لهذا اللحن . 1

بلى لقد كان المازف يتابع عزفه بشدة
— كأن لحننا مجولاً قد استمده ، وبراق
اللحن الثاني — او بالاحرى — هذا اللحن
الاخرس ايقسامتها ، عريضة تستطيل
وتستطيل في سخرية مرة ، سخرية رحيمة
تتطاول خلف المازف وعلى المرأة الآبنوسية

يشكس وجهها ، ووجهها باجمعه انقاسمة عابثة ، عابثة لا بد
فقال متفرباً :

— وبلى من هذا الغم القاسي ، انه ليس من وحل . فأجابه
الغم :

— ولكنك تمزف بشدة لا اعيدها . . هل في هه ها . .
ايها السيد المهدد .

— نعم — اجاب المازف : اتني
اشعر كمن استمده لمارد جبار ، فنا وهذا
اللحن المذهب ، المكمم بوحل الأرض

يتدوج على صدر الآلة الابنوس اللامع كالمرآة ، كان وجها
عابثاً ، يتجسد لرائيه وجهاً لرجل جبار صريح حيناً ، ووجهاً
لامرأة ناعمة غامضة حيناً آخر ، هذا الوجه خفي الخطوط ،
من آبنوس شفاف ومن شمع فوسفوري متعرج ، وعليه
تراقص ظلال ناعمة جداً سريعة انقلاب ترشقها في الاخاديد
المعبرة شمعة واحدة تتهادي متعالية بلسانها الاصفر الصقيل .
والريح المرحلة المتسككة على الشباك كانت تجذب هذا اللسان
الشمسي اطراف حديث ليلى .

— ذبابة معذبة أنت ! — قالت ذات الوجه الشمسي للمازف

— وازدقت بسرعة — وشددت بخبط
عنكبوت ثعابت في السقف ، عنكبوت
مفتسر ، ايها المازف هلا نظرت ؟ الي !
كما انك ان سمعني قط لقد قدر عليك ان
اسمع نفسك خبيب وهي تومي اليك
باحاديثها ، واحاديثك ليست إلا خطوط
ودوائر وثقوب . . وهه ها اذ السيد المازف
لا يبي ! لا يبي !

وكان المازف حقاً لا يبي ، هل هو يمزف ام لا ؟ لا انه
كان يدرك تمام الادراك ان شيئاً ما يجب ان يتم ، عيد ميلاد
شيء ، ليملا فراغاً ما لحظة او لحظات ومن ثمة ليزول . فما هو ؟
او متى ستكف هذه الاشباح الصغيرة المدللة ذات الوجوه المستديرة
البيضاء والسوداء والاسنان الحديدية ، بلى متى ستكف عن تعذبي .
تتم المازف — بائتجارها البري — وهي تقفز من حوله ، لدى اصطدام

انامله المكبلة بالأصابع الماجية ، فهذه الرموز
الموسيقية المتطايرة ، كانت ليست إلا
شجارير مروعة في سماء خريفية الالوان

طوبى لمن يمزفون انغامهم في صدورهم .
بلا آلة كالريح تمر في صدر الغابة تمزف
وتمزف بشدة . . .

— وأشار الى قفا — كمن يتخطى اقيانوس المقبرة الكونية
وجدا ...

فقال الوجه وقد تضرع بالقرمز :

— لوحدك ؟ يا لك من فاكر للجميل ؛ كما ان قيادك رهن

صياقي !

وأشارت بانملأ الشمعية ، انملأ الرانجية من تأثير قطران
النبيخ ، اشارت الى قفا الصاعق ان هلا قيلتي ؟ واردفت :

— ولكن تمهل ... دع اللحن يسيل . اتمم القطعة ادلاً

ثم ...

ونقلصت ابتسامتها ، ابتسامتها الوحشية اذ الوجه الشمعي
مراجع باجمعه الى ركن سحيق في اقصى رواق المرأة الآبوسية
والتي تشكل جزءاً من البيانو ، هنالك وفقت تمزساخرة منه
وهمت بقوة :-

— المازف الشمس ؟

يا للمازف الشمس ! وههها ..

واستغرقت في قهقهة لم يجرب المازف الحائز تفسيرها وقال
برزانة تصدها فيه جيداً :

— ايها الوجه الحبيب ، اميرتي ، متى ستقدر لك الراحة ؟

... —

— ايها الصغيرة الطافرة : القناع راحة رائحة لو تعلمين ،

... —

— انت في قاع خاطري — قال المازف بقسوة بالغة .

فتموج الوجه وقالت محمقة بمحذر :

— امواجك لا ترحم حتى صخورك ، ويحي من ظنك
الا اتم .

حقاً لقد تم لخاطره ان يتمطي اخيراً ويحتوي وحبها الذي
تحول الى ابتسامة مقبورة ذات تدمير عجيب ، فقالت لاهته وقد
احست بيوادر انتصاره :

— لقد تم لك ان تفرقي في بحيرة ظنك الطينية ايها السيد
ولكن حاول ان لا تثبني واشارت بانملأ ان اتبعني !

وكان هنالك صراع عنيف بين اربعة عيون في هدأة الليل
وكانت الالجان الخرساء المنمته من قاع البيانو هي الحاكم

لاعشى الفرد بينها .

— أنت ابدى الاخطاء ايها المازف — قال وجهها متحرشاً
من جديد .

فاطرق المازف لحظة ، وحسب انها تتوسل فتقاص كالجنير
وتتمت المستمعة وهي تتموج من بعيد :

— انه لا يمي ، ليته عزف لحناً واحداً ، لقد شارف الليل

نهائيه . كما انك ابدى الاخطاء ، ولن اجرب فهم امواجك

الخرساء بعد اليوم ، سامضي لوحدي . هل تسمعي ايها المازف ؟

وحذار ان تثبني وامعت في الابتعاد متجهة نحو القاع بعد

ان قدنته باعانة من اعنبا — ان هيا اتبعني !

اما المازف فلقد تحول الى كف .. خاطره تحول الى كف

فجأة ذات اصابع لا تحصى تبحث عنها ، ورجراجة هذه

الاصابع كلاء وتداعب وجهاً شرقي الجمال غريباً ، وانضج له

وهلة انه لا يعزف ، كما انه يحاول انتشالها من قاع ظنه ، اذ

ان هذا الوجه هو وجهها بالنا كيد يقال المازف المعبذ :

— اواه انها ابدية السخرية ، كما اتني ابدى الاخطاء . ولكن

هذا الحنان ، هذا الحنان المسلط كالسيف الى أين يدفني

يارب ؟ !

— الى المجهول — تعالى مواثها — الى المجهول الرثع —

صرخت المستمعة وارردت :

الى حقول الآلهة ايها السيد العبد فهل تسمعي ؟ فامض

امض امض ، هلا مضيت ؟

وكان الصوت قادماً من الاعماق البعيدة والمازف يردد

اصداؤه بعزفه الاخرس

— الى حقول الآلهة ؟ — ردد المازف بحسرة وبأس انالست

سوى قبضة من وحول الفلوات الموحشة زهرة واحدة لن

تثبت على هذه التربة التي ليست من الارض وليست من السماء

وهلة كف عن العزف ، ومن قال انه يعزف باننا كيداً

وتحسس جبهته بكفتي راحتيه .

— نجنون لذيذ — نعم الوجه الشمعي ، وطفحت عينها

بحنان رائع ، حنان حار ، وتمالت من قاعها كمجموعة من

الفقاقيع الملونة ، على كل فقاعة ارتسم وجهها الشمعي الصاعق .

فقال المازف بعد ان شد على شفتيه السفلى باسفانه :-

— لقد بدأت تتحول .. تتحول الى لا شيء . مستنحي

شكوكي الآن برمتها دفعة واحدة
يا المراحة ..

وعانت الانامل المشعة تعبت بالبيانوعات تنقلص وتنفرج
في الفراغ واحس انه يتمصر من اللاشيء الفراغ لحناً فارغاً
فصرخ العازف متوسلاً :

— أيها الوجه الفريق ، أيها الوجه الفريق .

— ياله من نشيد رائع — قالت المستمعة

فاندفع الى اعماق اللحن كمن يحاول اقتراس هم طاغ
بالانتقم من نفسه ، ومن هذا الفراغ الذي يتأرجح فيه

وقال مستنجداً :

— اني عبيد للمارد مجهول للأبد لقد اغلق علي .

أين الدرب ؟ أين الدروب ؟

ورفع بصره الى سقف الغرفة ، الى سقف عال ، وممس
واجباً :

— عينا المارد ، عيناها ، عينا المنكبوت الكوني .

وانساب شمع اخضر الى اعماق ظنه الاثيم وألقت الانوار
الخضراء وشاحها السام على النجوم في مداراتها وراحت الاشياء في
رقصة مسحورة تنداح حلقات حلقات حلزونية حول عرش
المنكبوت الكوني ، واللحن بدا رائعا منسجما فقال العازف :

— انا لوحدي انخبط في لحن الفراغ في هذه المغارة

لحني غني باللمرجات ، لحني من العدم من العدم .

لحني . وسقط رأسه على البيانو في حالة يرثى لها واندفع
دوي البيانو ومشوشاً السكون . . عندما اندفعت المستمعة وقالت

بعتب :

— أهذا كل ما استطاع انشاده العازف العظيم ؟

لقد كانت البداية حلوة واني اذكر احد المقاطع اسمع :

البحر عتمة والتساع

والقاع راحة رائمة

واردفت :

— اني اذكر هذا النشيد جيداً ، النشيد الذي اغرقني فهل

تذكره ؟

واحس بقبضتها تشد على قلبه عصراً ، وشعر بضالة اذ ذاك

امامها ، وانه لا يستطيع ان يتنج شيئاً وهو بعيد عنها ، وتلك
اليد الجبارة التي تلامس كتفيه ، بدأت تدفيه من جديد الى
اعماق القيعان التي لا يجمل بحرانا الرهيب ، فهو . . هو
بهوادة وعلى نفس الكف التي دفنته راح بهوى بترخ وهدوء
واستقر على القاع ، في قاع خاطره . . في قاع ظنه الاثيم . فتمتم :

— أجل ، القاع راحة رائمة

وكانت عيناها تحديقان بعينه بمتب وكبرياء

فقال محموا :

— انها هي ، هي ، يتبدل الكون وهي هي . .

— لقد جعلت من شبكتي لك اوتاراً — قال الوجه الشمعي

وشبكتي شي من الشمس ؛ شي من دمي

فابتسم العازف وارتاح للنشيد وراح يعزفه ويعزف بشدة

متمتماً :-

— ايها المارد المجهول ، ايها المارد الحبيب لقد كنت اتوقع

ان تبس خير للنشيد من عينيك ، من اعماقك كلما حدثت في
وجهك المدمر ؟

فكانت تبسة من هذا الغزل المعتم :-

— قل لي انك ستعزف شيئاً جديداً الليلة لقد سئمت الانتظار

ولكن لم تحول ظهرك الى ضيوفك اذا كنت لا تود العزف ؟

ولما كان العازف لم يبدأ بالعزف بعد ، تسنى لالسام قرنفلية

صفراء وبفسجية ان تندفع من الشباك الذي توقفت ان يتبثق

منه لحن ما الليلة .

ونثرت من احضانها ما جمعت لها من حقول الليل ولا مست

باكفها الرطبة جبهة العازف الملتببة بضجر ، كأنما تستحنه على

العزف ، وجفت باكامها وجه السيدة ذات الوجه الشمعي ،

— وهي المستمعة الوحيدة في الغرفة وكانت اذ ذاك تهم باطلاق

دمنة مقهورة ، لقد حسبت ذات الوجه الشمعي انها لن تغلج

قط تلقاء هذا العازف المكتم ان تكون أي مصدر وحي له .

فقال العازف بأساً :

— لم يرافقني على دربي العاصف سوى الدمار

الدمار الفنى لقد صدقت عندما تنبأت لي بهذا .

فتنوع الوجه المنعكس على المرآة الآبنوسية وقال هامساً
بضجر وأسى :

- دمار فني ؟ اني لا افهم ، والويل لهذا الدمار الفني . لقد
كانت مني فكاكة عابرة .

وراحت تستوعب كل ما يمر بخاطر العازف دفعة واحدة
وعلمت ان الينبوع قد شارف الانفجار اذ الاشباح الصغيرة
قد عادت الى الظهور تظفر من حفرة البيانو ، حادت لتملأ جو
الغرفة بوشوشتها المتفائلة كوطاويط الحيز ، ثم لا تلبث ان
تجمعها الريح المحملة بالشذى . باذرعها البلورية المديدة وكفر
بها ، لتثرها على الآفاق الجمالة . على ملائيل تثرها ، هدية
من النجوم البشرية ، من شموع الانسانية التي تضي وتشد
وتعطى الغير ، ولا تعرف لها عملاً غير هذا بيرر وجودها
فقال العازف :

- انظري كيف تنهار ذراتها وتختفي كأنها لم تكن ،

فهل يسرك تحويل الحاضر الى ماضٍ يا اميرتي ؟

عجياً في لحظة واحدة يصبح النغم ماضياً

بقفزة واحدة تنمحي من الوجود وتموت .

فقال المستمع بحده :

- اسمع تموت او لا تموت ؟ فهذا البيانو مهدا قبرها ، وهذا

ما قدر لها ، كما قدر لهذا التراب ان يكون مهدنا ولحدنا .

فقال متحمساً :

- ليتني اتمري الى أين تنزح هذه المواليد البريئة فقلت

ميتاثبة :

- هل اذا علمت مكان مقابرها يتبدل تفسير الامور عندك ؟

فقال :

- على رسلك فهل انا هنا كي ارسوم مصيرها التافه فحسب ؟

واردف ساخراً :-

- وما مصيرها ؟ مصيرها يخيل الى انه لا يتمدى الخطوط

والدوائر والثقوب الطائشة التي تملأ هذا الفراغ الرجراج

فهل هناك من معنى واحد لهذه الطوائف من الامواج

المبهمة التي خلقت مبهمة لتضي مبهمة ؟

فقلت :

- جرب أن تضع لوجودها مفزى ، تفسيراً . هذه هي
موسيقاك بعد اليوم فهل سمعت ؟ فابتسم وقاله :

- امرك مولاتي !

ولكنها تابعت نظريتها متجاهلة نبرة التهكم في صوته :

- لارب ان وراء هذه الدوائر والخطوط التي يرسمها كل

حي او جامد ، شيء من المعنى .

عندها اعتزت الشمعة وكادت ان تنطفي واردفت قائلة :

- انظر الشمعة ، يخيل الي انها وحدها هي التي تحاول

فهم مبحثها في هذه الغرفة الفائرة ، وان كانت مهيتها البتلة

افارة جبل من الوهم ، قدر عليك ان ترزح تحت انقاله !!

لقد كانت صفة . صفة خير رهية ، فقال العازف محاولاً

هضم كل كمة قيلت :

- رويدك اني استشف ما تمنيه يا دماري الفني !!

وحاول ان يقلبها ولكن المرآة الآبنوسية صدته ، صدته

فحسب . فقلت متراجعة الى ركنها في انصى المرآة :

- بعد النشيد ، اعنى بعد ان تتمم النشيد المطلوب ساقبلك

- بعد ان انعم الاشودة ؟ ولكنها تمت

☆

تخطم السكون فانتبه العازف من بحرانه واستدار ليرى

المستمع ذات الوجه الشمعي تتشاب فقال بسره :

- يالها من امرأة كلها خطوط فوسفورية ودوائر ترسم امام

عيني اغمض معاني الوجود ، خطوطاً ودوائر تشع في الظلام

كأنها خلقت لتعيب على تفسير عبثها الارنجالي واردف بصوت

مرتفع فقال :

- ما اشبهك بالاهليج الذي ترسمه الشمس في دورتها

البسيطة السريعة . انه اهليج محرق خفي لا يرى ، ولكنه

موجود . . .

واراح كفيه على ركبتيه على مبل وهمس كن يقلد نجيب

الافعى :-

- ولكن البيانو مقفل يا سيدتي العزيزة !

وها اني انتظر المفتاح ، لقد طلبته منك .

منذ ربع ساعة ! آه المفتاح ، هناك ؛

وغنمتم المستمعة حيرى :

- يجلس طوال الليل على المقعد امام البيانو ولا يمزف شيئاً
لأنه .. ينتظر المفتاح !

ولا ادري كيف تحرك المازف وقال :

- حسناً : ولكن لا حاجة لي به اذ لم يبق هناك ما يثار
من الألحان . أنت التي كنت تعزفين طوال الليل ، لقد طفت
بني على مزارع ومراعي واعشاش من الألحان لم اعدها ؛ لقد
عزفنا ما فيه الكفاية حتى ضجت الدنيا ؛ هلا سمعني اعرف ؟
غريب غريب جداً !

- الليلة ؟ لا أبداً اني انتظر منك ان تتمرن على الانشودة
الجديدة .

وهنا نهض السيد المازف وتحول نحو النافذة وكان الفجر
قد شارفت قوافله الافق الشرقي وقال كمن يحدث احداً قد
شئ في الفراغ المظلم بصورة مضحكة :

فضحك وضجت حانقة من تفسيره المعكوس للوضع النفساني
القلق الذي رزح تحته طوال هذه الليلة والتي لم تشأ هي لسبب
يجول منها ان تنقله الى عالم الواقع فصمتت بدورها طويلاً لا تحرك
ساكنها كل هذا احتراماً لتأملاته التافهة وقالت بشدة :

- بل لقد احترقت ليلة بالكلياً ، هل تعلم كم الساعة الآن ؟
نظر الى ساعته وصفر دهشاً :

- الاربعة : الاربعة تماماً بعد نصف الليل . اللعنة !
ماذا حدث لي أين كنت أهيم ؟

- ماذا قلت ، اذكر انك ذكرت ربع ساعة فحسب أي
منذ ربع ساعة طلبت المفتاح .. رائع يمر الزمن ويحصل معه
عمرك وتتجاهل وجود هذا الشيء الحقير الزمن ! هه .

- سيدتي ان امتح الماضي من نفس أي شيء بعد اليوم مهما
كان حقيراً ، ونعم .. الزمن .. الزمن ذلك القول .. وسرح
طرفه في الفضاء الشفقي واردف قائلاً بألم :

- لن اطعم الجبول الكامن وراء انق اللحظة الحاضرة
المحدود - شيئاً بعد اليوم من نفسي .

فهذا الجبول النهم - الماضي - القابع وراءنا لا يختلف عن

توأمة غول المستقبل القابع في شفق السماوات ؛

بجاهيل متصلة بعضها ببعض حلقات حلقات لانهاية لها كأنه
نفس بلا م حاضر ان اعزف للغد ، وان احول الحاضر الى ماض
سأنعم بالنشيد في صدري . اينك تدركين . كم يؤاني نقد لذات
اللحظة الحاضرة بفنائها انسريع الحقيير ..
فقات السيدة :

- يحسن بك ان تعتبر الزمن مزيجاً جميلاً من الماضي
والحاضر والمستقبل ضع كل هذا في بوتقة الحاضر المحسوس
وتذوقه . جرب هذا الطعام

- كلا لا استطيع ان ابعد عن عيني قسوة هذا الغم المثائب
الذي يطلب المزيد من دمائنا عند مطلع كل شمس ، كأننا شلال
من دم يروى ظمأ أحدهم في مكان ما من الكون .

يا للنهم الزمن بلتهماً فكيف يتم لنا تذوقه ؟
فالحياة .. والزمن فم يقتاب ويحتويانا .
فقات :

- ان شئت قل حلقة مفرقة هي : عناصر الزمن الثلاثة كما
ان تصويرك للفناء باسم النهم كان تصويراً موقفاً ، ولكن دعنا
من هذا الهذر لا اخالك تستطيع ان تتمرن على النشيد الجديد
بعد نصف الليل اذ انني اخشى ان يستيقظ احد من جيراننا
اقول بصحو وفي قبضته مطرقة !!

واشارت الى البيانو .. اشارة ذات مغزى معروف .

فابتسم المازف ونظر بدوره الى البيانو بأسى وقال :

- ليبق اللحن في مكانه المعدني ، لن ادعها ترسم تلك الدوائر
السيخيفة والخطوط المبهمة بعد اليوم في فراغ هذا الكون .
ومن ثمة لتعاد اليانا بعد ان تتم دورتها جديدة كأنها جديدة
جدا ، يا يسخرية .

فقات منهكة :

- هل تعني انك ترفض ان تتحول انتامك الى ماض ؟

- ؟ ؟ ربما . بل اؤكد ذلك .

- رائع لقد صفت « بهوفن » العظيم و « تشايكوفسكي »
الجبار ايها السيد المازف عن العزف ! ولكي افضل ان اكون

﴿ البقية على صفحة ١٣٨ ﴾